الباب التاسع

في العلوم والفنون والتربية

نذكر في هذا الباب خلاصة لآراء الغزالي في العلم والعمل والفرق بين علم الدنيا وعلم الآخرة، وكيف يفهم علم الفقه، وعلم التوحيد، ثم نذكر بالإيجاز فهمه للفنون الجميلة، ثم نبين المنهج الذي وضعه لتربية الأطفال، وما يراه من آداب المعلمين والمتعلمين، وكيف أهمل تربية البنات.

obeikandl.com

الفصل الأول

العلوم

تكلم الغزالي عن العلم والعمل، وأيهما أفضل للمريد، في مواطن كثيرة من مؤلفاته في الأخلاق.

وقد لاحظت أنه لم يكن موحد الرأي في هذا البحث، فتارة يقدم العلم على العمل، وأخرى يقدم العمل على العلم. ويخيل إليَّ أن نزعته الصوفية كانت سبب هذا التردد، بل وأحسب أيضا أنه كان يداري أهل عصره، ويسايرهم في كثير من الشئون. فقد أراه يهم بالكشف عن المقصود من العلم ثم يتراجع. ولو جرؤ قليلا لبين لنا أن العلم النافع لا يقتصر على معرفة العبادات، وما إليها من دقائق التصوف والتوحيد، بل هنالك البحث في طبائع الأشياء، والتنقيب عن السر في أن الله سخر لنا ما في الأرض جميعا.

غير أنه لم يكد يذكر قوله عليه السلام: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر»، حتى اندفع يقول: «ذلك العلم المقدم على العمل لا يخلو: إما أن يكون هو العلم بكيفية العمل، وهو الفقه وعلم العبادات، وإما أن يكون علما سواه. وباطل أن يكون الأول لوجهين؛ أحدهما: أنه فضل العالم على العابد، والعابد هو الذي له العلم بالعبادة، وإلا فهو عابث فاسق، والثاني: أن العلم بالعمل لا يكون أشرف من العمل، لأن العلم بالعمل لا يراد لنفسه، وإنما يراد للعمل، وما يراد لغيره يستحيل أن يكون أشرف منه».

وكان المظنون بعد هذه المقدمة أن يعطي العلوم ما تستحق من التفضيل. ولكنه قسمها إلى قسمين: عملي ونظري. أما العملي فقد قدم أنه ليس أفضل من العمل، وأما النظري فقد زيفه جميعه، ولم يستبق منه إلا ما يرجع «إلى العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله وملكوت السموات والأرض وعجائب النفوس الإنسانية والحيوانية من حيث إنها مرتبطة بقدرة الله عز وجل لا من حيث ذواتها».

مناقشة قصيرة

من هنا يتبين أن واجب العابد لا يخرج عن العبادة والتفكر في المعبود، وما إلى ذلك من معرفة الملائكة والكتب والرسل وملكوت السموات والأرض... إلى آخر ما قال.

ونسأل الغزالي: ما رأيه إذا توقف فهم الكتب السماوية على إدراك روح التشريع، بفهم أصول القوانين؟

وما رأيه إذا توقف فهم «عجائب النفوس الإنسانية والحيوانية» على علم النفس، وعلم وظائف الأعضاء؟

وما رأيه إذا اقتضت معرفة الرسل درس التاريخ القديم والحديث، لفهم ما قد يضطر إليه المشرعون من الرسل والأنبياء في مختلف العصور؟

وما رأيه إذا توقف إدراك ما في الكتب السماوية من سياسة الناس على علم الاجتماع؟

لم ينكر الغزالي أهمية العلوم العقلية، والنقلية؛ ولكنه جعل بعضها وسيلة للعلوم النظرية، والوسيلة بالطبع دون الغاية في الرتبة. وجعل بعضها علوما عملية، وهي أيضا وسيلة للعمل، فلا يعقل أن تكون أشرف منه!

فلم يبق من العلم المقدم على العمل إلا العلم بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر؛ وهو في ذاته علم شريف.

ولكني أحب أن أضع هذا السؤال: أيكون من يشغل نفسه بهذا النوع من المعرفة أفضل أمام العقل والشرع ممن أفنى عمره في درس الطب حتى استطاع أن يعرف كيف تغزى الديدان التي تحدث البول الدموي، والتي تهلك في كل عام ما يعد بالملايين؟ وهل يقدم محيي الدين بن عربي يوم القيامة، على من يقضي حياته لا في التفكر في ملكوت الله، بل في غزو السل والسرطان؟

الشك عن طريق اليقين

وبمناسبة العلم نثبت قول الغزالي في نهاية الميزان: «ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات إلا ما يشكك في اعتقادك الموروث لتتتدب للطلب، فناهيك به نفعا. إذ الشكوك هي الموصلة للحق، فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال».

غير أن الغزالي لم يبين لنا مصير المرء إذا بقي في شكه، ولم يهتد إلى اليقين. وما نحسب عصر الغزالي كان يسمح له بتحرير هذه المسألة، وإن كانت غاية في الوضوح فمتى كان المرء حُرًّا في أن لا يثق بعقيدة قديمة مهما أجمع عليها الناس لاحتمال أن تكون باطلة، فهو بالضرورة غير مسئول عن الوصول إلى نتيجة معينة، وإنما يسأل عن اعتقاد ما أداه إليه الدليل.

ولا يفوتنا أن نلفت النظر إلى أن الغزالي نبه في عدة مواطن من كتبه إلى أنه يجب على المعلم أن يتجنب كل ما يثير الشك في نفوس الضعفاء، وحض المرشد على الاقتصار مع العامة على المتداول المألوف. ومعنى هذا أن الشك وإن كان سبيل اليقين، إلا أنه لا يستعمل إلا بمقدار. وهذا المنهج يبين لنا أن الغزالي يحرص على وحدة الهيئة الاجتماعية، وينفر من كل ما يقربها من الانحلال. فللعلماء أن يشكوا وأن يختلفوا، ولكن عليهم أن يجنبوا العامة مواطن الشك والخلاف، ومن هنا نفهم كيف يرى أن الإجابة على بعض الأسئلة حرام. وسنعود إلى هذا البحث عند الموازنة بينه وبين الفلاسفة المُحْدَثين.

علم الفقه

ولقد بلغ من إغراب الغزالي في التصوف أن جعل الفقه من علوم الدنيا، وألحق الفقهاء بعلماء الدنيا. وأنت تعلم قيمة الدنيا عنده!

ولكن أليس الفقه هو معرفة القوانين التي يساس بها الناس؟ ليكن كذلك! إذ ما قيمة هؤلاء الناس؟ أليس الله أخرج آدم من التراب، وأخرج ذريته من سلالة من طين، ومن ماء دافق، فأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام، ومنها إلى الدنيا ثم إلى القبر، ثم إلى العرض، ثم إلى الجنة أو النار؟ وإذا كان هذا مبدأهم، وهذه غايتهم، وكانت الدنيا زادهم، فما قيمة الفقه، وما هي أقدار الفقهاء؟ أليسوا يفصلون في خصومات لو عدلنا ما احتجنا إلى أن يفصلوا فيها، ولما كان لهم قيمة في هذا الوجود؟

هذا هو منطق الغزالي!

والحمد لله الذي رحم الشرق وأسلمه من علم الفقه، ومَنَّ عليهم بالقوانين الأجنبية التي يقدم إليها أصحابها آيات التقديس، عند الشروق وعند الغروب!

الفقه لا قيمة له في نظر الغزالي، لأنه يتعلق بسياسة هؤلاء الناس المناكيد الذين اضطرونا بشرهم إلى الفقه والفقهاء، والذين لو عدلوا لما احتجنا إلى قاض ولا إلى فقيه!

صدقت يا مولانا الأستاذ! ولكن اسمح لنا بأن نذكرك بأن النبي كان فقيها، وكانت شريعته فقها، وهل الفقه شيء آخر غير قواعد الفصل في الخصومات؟

وهل بلغ من هوان الدنيا عندك أن تحتقر لأجلها الفقه والتشريع؟

اتركوا الدنيا لأصحابها يا جماعة الصوفية! اتركوا الدنيا للمسلمين فإن الله لم يبعث محمدا إلا ليمكن للمؤمنين في الأرض، ويجعلهم أئمة، ويجعلهم الوارثين.

علم التوحيد

وأما التوحيد فهو عند الغزالي وقف في جوهره على علماء المكاشفة.

وما هو علم المكاشفة؟

هو علم لا تعرفه، ولكن يقال: إن سوء الخاتمة مُعد لمن ليس له منه نصيب!! ويقال: إن أدنى نصيب من هذا العلم هو التصديق به وتسليمه لأهله! ويقال كذلك أن أقل عقوبة من ينكره ألا يذوق منه شيئا!

وما هي غاية هذا العلم؟

غايته أن تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله وبصفاته الباقيات التامات!

وأنا لا أدري سبب هذه الشهوة الغريبة التي تحمل علماء الدين على البحث عن ذات الله وصفاته، ولا أعلم كيف عميت قلوبهم حتى اندفعوا يذكرون عن ذات الله وصفاته ما يجب أن يتورع عنه المؤمنون!

يطمع الغزالي في معرفة ذات الله معرفة حقيقية، وهذا والله عين الجهل، ونفس الضلال! ويطمع كذلك في معرفة صفاته التامات، وهو الذي بلغ به الأدب مع الأشاعرة والمعتزلة إلى الاختلاف في صفات الله، وفي كلامه، وفي أفعاله، وفي رؤيته بالأبصار يوم القيامة إلى غير ذلك من المباحث التي لا يقدم عليها غير عمي القلوب!

والظاهر أن الغزالي ومن على شاكلته لم يشهدوا المعركة القائمة بين الهدى والضلال، ولم يروا يوما واحدا كيف تتصاول العقول؛ فإن البحث عن ذات الله وصفاته حمق وسفه، وإنما سبيل المؤمنين أن يتأملوا ما يحيط بهم من جلال الوجود، وأن يبحثوا في المراد من أن الله سخر لهم ما في الأرض جميعا، فإنه ليس للعاقل أن يترك الانتفاع بما تلمس يده، وترى عينه، ليغيب في مجاهل من الظنون، يسميها سفها علم التوحيد.

وما أسفت لشيء أسفي لانحصار الأفكار الإسلامية «في معرفة معنى النبوة والنبي ومعنى الوحي ومعنى الشيطان ومعنى لفظ الملائكة والشياطين وكيفية معاداة الشياطين للإنسان، وكيفية ظهور الملك للأنبياء، وكيفية وصول الوحي إليهم، والمعرفة بملكوت السموات والأرض، ومعرفة القلب وكيفية تصادم الملائكة والشياطين ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان، ومعرفة الآخرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب، ومعنى لقاء الله والنظر إلى وجهه، ومعنى القرب منه والنزول في جواره، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملأ الأعلى،

ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدري في جوف السماء».

فإن هذه في الأصل أكثرها رموز ظنها المسلمون حقائق، فوضعوا لها ضربا من التفسير والتأويل.

والذي يطالع الكتب القديمة يرى جمهور الفقهاء أعلم بخريطة الآخرة منهم بخريطة الدنيا: فهم يعرفون من أنهار الجنة ما لا يعرفون من أنهار هذا العالم، ويعلمون من أبواب جهنم ما لا يعلمون من أسباب انحطاط الأمم وضعف الشعوب، ويدركون من نعيم الآخرة ما لا يدركون من معنى الملك والقوة في هذا الوجود، وفي مقدور المرء أن يجد مئات الكتب في وصف الحشر والنشر، ولا يجد كتابا واحدا في تحديد المراد من الخلافة الإسلامية، التي قامت بسببها آلاف الفتن، ومئات الحروب.

والغزالي من الذين ساعدوا على بقاء هذه العماية، فقد وضع الكتب المطولة في كيفية العزلة، ولما أراد أن ينقد الشئون الاجتماعية وضع كتابه «التبر المسبوك في نصيحة الملوك»، فكان آية في السخف والاضطراب.

وإلى من نقاضي هؤلاء العلماء؟

نقاضيهم إلى القرآن: ففيه الدعوة إلى الملك، وإلى أن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. وهل الأخلاق شيء آخر غير حرب الذلة والقلة: في الأفراد، والجماعات، والشعوب؟

نقول هذا ونطالب كل مسلم بالحذر البالغ عند مطالعة كتب المتقدمين، فإن أكثرهم لم يعرف السياسة، ولا شئون الاجتماع. وإلا فأين غرر المؤلفات في الأمور السياسية والاجتماعية؟ وأين البصر النافذ إلى أعماق الحياة الدولية؟ بل وأين الخبرة بالسريرة الإنسانية، التي حسبوها لا تعدو طلاب الجنة من الزهاد، والعباد، من كل راض بالفقر، قانع بالسؤال؟

obeikandl.com

الفصل الثاني

الفنون

أباح الغزالي أن يحب المرء لجماله، فكان ذلك منه اعترافا بالحاسة الفنية، التي يدرك بها الأديب، والفنان، والفيلسوف، ما في العالم من دقائق الجمال.

وتجد في حقوق الأخوة من هذا الكتاب أن الغزالي ضرب المثل بالنظر إلى الفواكه، والأنوار، والأزهار، والتفاح المشرب بالحمرة، وإلى الماء الجاري والخضرة. ومعنى هذا أن الإنسان متى جاز له، وبعبارة أدق، متى أمكن له أن يحب هذه الأشياء بلا نية سيئة، فقد يمكن له أن يحب الرجل الجميل بلا غرض خبيث.

وشاهدنا في هذه الفكرة، هو أن الغزالي يؤمن بأن للروح شيئا من السلطان، وله بعض الحقوق. فإنه متى جاز أن يحب الرجل لجماله، والجمال في الرجال كثير، فقد أصبح للروح الحق في أن يتمتع بكل جميل، متى استطاع أن يتحلى بالعفاف. وهذا فيما أرى اعتراف من الغزالي بضرورة وجود الفنون الجميلة لتتمتع بها الأرواح، كما يجب أن تملأ الخزائن والأسواق، لتجد الأجسام ما تحتاجه من الغذاء.

ويحسن أن نذكر ما لاحظناه على الغزالي حين تكلم عن التشريح: فقد قرر أنه يسير بفريق من العلماء إلى أن النفس تموت؛ فإنا سألناه: هل يقضي ذلك بتحريم التشريح؟ وبالطبع ليس عند الغزالي جواب على هذا السؤال!

وكذلك نسأله الآن: يجوز أن يحب الشخص الجميل، ولكنا لاحظنا أن مثل هذا الحب قد يجر إلى الفسوق. فهل يحرم لذلك حب كل شخص جميل؟ وليس للغزالي أيضا على هذا السؤال جواب!

وإنما قدمنا هذه الكلمة أمام رأيه عن الفنون الجميلة، ليعرف القارئ، أنه لم يذكر أصلا من أصول الأخلاق يبرر رأيه في الفنون فقد أتى عليها جميعا بالنقد والتجريح، وإن لم ينكر «أن لله سرا في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح» وأحسب أنه لو تروى قليلا لعرف أن لله سرا فيما تحدث الفنون، من أنواع الفنون.

الشعر

رأي الغزالي في الشعر رأي عجيب، فهو يرى أن مقصوده المدح والذم والتشبيب. وعلى فرض أن الشعر لا يقصد منه غير ذلك فهو مقصود حميد، وإن قبح في بعض الأحوال.

وقد رأى الغزالي نفسه أمام أمر واقع: وهو أن الشعر أنشد بين يدي رسول الله، ولكنه اعتذر عن هذا بأن المبالغات التي وردت في ذلك الشعر، لم يقصد بها الكذب، وإنما هي من صنعة الشعر. فلا يقصد بها اعتقاد الصورة التي وضعها الشعراء.

ولا أدل على هوان الشعر في نظر الغزالي من قوله: «وأما الشعر فكلام حسنه حسن، وقبيحه قبيح، إلا أن التجرد له مذموم» ص ١٣١ ج ٣.

والتجرد للشعر هو صنعة الشاعر الفنان؛ الذي يريد أن يمثل عصره، وقطره في صحيفة التاريخ. ومتى كان من المذموم أن يتجرد المرء للشعر، فمعنى ذلك أن الشعر لا يصح أن تخصص له حياة فرد من الأفراد. وإن جاز للناس أن ينشدوا أو ينشئوا ما حسن منه، لأنه ككل كلام: حسنه حسن، وقبيحه قبيح!!

ولا يفوتنا أن نلفت النظر إلى أن الأحاديث التي رواها الغزالي في ذم الشعر اقتضتها ظروف خاصة، بدليل ما روى الغزالي نفسه، مما يناقضها كل المناقضة، فكان عليه أن يراعي تلك الظروف.

الموسيقى

تكلم الغزالي عن الموسيقى باحتياط يدل على مبلغ رأيه في هذا الفن الجميل، وهو يقسم الأصوات الموزونة باعتبار مخارجها إلى ثلاثة: ما يخرج من جماد: كصوت المزامير، والأوتار، وضرب القضيب، والطبل وغيره. وما يخرج من حنجرة حيوان، وذلك الحيوان إما إنسان، أو غيره: كصوت العنادل، والقمارى، وذوات السجع من الطيور. ثم يحكم بأن سمع هذه الأصوات يستحيل أن يحرم لكونها طيبة أو موزونة، إذ لا ذاهب إلى تحريم صوت العندليب، وسائر الطيور، ولا فرق بين حنجرة وحنجرة، ولا بين جماد وحيوان، فينبغي أن يقاس على صوت العندليب الأصوات الخارجة من سائر الأجسام باختيار الآدمي كالذي يخرج من حلقه، أو من القضيب والطبل والدف.

إلى هنا لا تجد شيئا يغض من الموسيقى باعتبار أنها فن جميل، ولكنك تجده يقول بعد ذلك: «ولا يستثنى من هذا إلا الملاهي والأوتار والمزامير التي ورد الشرع بالمنع منها، لا للذتها، إذ لو كان للذة لقيس عليها كل ما يلتذ به الإنسان، وإنما حرمت لعلل ثلاث؛ إحداها: أنها تدعو إلى شرب الخمر، فإن اللذة الحاصلة بها إنما تتم بالخمر ولمثل هذه العلة حرم قليل الخمر. الثانية: أنها في حق قريب العهد بشرب الخمر تذكر بمجالس الأنس بالشرب، فهي سبب الذكر، والذكر سبب انبعاث الشوق، وانبعاث الشوق إذا قوي فهو سبب الإقدام. والثالثة: الاجتماع عليها، وهو من عادة أهل الفسق» ونجده بعد هذه الفقرة ينص على تحريم المزمار العراقي،

والأوتار كلها، كالعود والصنج والرباب والبربط [1] وكل ما يذكر بالخمر، ومجالس الخمر، فأما ما عدا ذلك فهو على الإباحة، قياسا على أصوات الطيور.

وما نريد أن نناقش هذا الرأي، ولا أن نبحث في الأساس الذي وضع عليه، ولكن ننبه على أن فيه دلالة على دقته في وقاية الجبهة الخلقية، وحرصه على أن يظل المرء بعيدا عن مثار الشهوات.

ونضيف إلى ما سلف من رأيه في الموسيقى، أنه عد بيع الملاهي من المنكرات التي يجب كسرها، حين تكلم عن منكرات الأسواق، وعد من منكرات الضيافة سماع الأوتار وسماع القيان، وعد إعطاء المال للمطرب إسرافا يجب على المحتسب إنكاره، ولم يعين مهنة المطرب، فصلح لأن يطلق على المغني والموسيقار. ونص في ص ٣٢٧ ج ٣ إحياء على أن أصوات المزامير والأوتار إذا ارتفعت في دار بحيث جاوزت الحيطان، فلمن سمعها دخول الدار وكسر الملاهي، ونص كذلك على أن للمرء الحق في أن يكسر العود إذا رأى شخصا يحمله.

ومما سلف نعلم أنه لا يحرم الموسيقى مرة واحدة، ولكننا نعرف أنه لا يقيم لها وزنا باعتبار أنها فن جميل، فمن الواضح أن لكل فن سيئات وحسنات، وأن السيئات لا تقل قيمة في نظر الفنان عن الحسنات، إذ كان جمال الفنون يرجع أكثره إلى ما تُحْدِث في عشاقها من الجرأة على المألوف، وهو ما يخافه الغزالي ويتوقاه.

وهذا الذي يوجب كسر العود، لا يبيح فيما نظن أن تبنى دار الموسيقى، وأن يختار للتعلم فيها حسان الأصوات، وصباح الوجوه!

---

[1] البربط: كجعفر هو العود معرب بربط أي صدر الأوز لأنه يشبهه.

ولا ننس أنه لم يحرم الأوتار والمزامير إلا لأنها تذكر بمجالس الخمر، فلنذكر أنه يحرم من أجل الخمر هذه اللذة الروحية البديعة. فهي عنده «أم الخبائث»، وأصل المنكرات.

الغناء

لم يفرد الغزالي بابا للموسيقى، ولا للغناء، وإنما نأخذ رأيه في هذين الفنين مما جاء في كتاب السماع والوجد، وهو الكتاب الثامن من ربع العادات من كتب الإحياء.

وأول ما يلفت النظر إلى رأيه في الغناء، موافقته للشافعي في أن الرجل الذي يتخذ الغناء صناعة لا تجوز شهادته، لأن الغناء فيما يرون من اللهو المكروه، الذي يشبه الباطل، ومن اتخذه صناعة كان منسوبا إلى السفاهة، وسقوط المروءة!

ومتى كان الغزالي يرى أن محترف الغناء مردود الشهادة، فإنه لا يرى للغناء قيمة، وما ظنك بفن يهبط بصاحبه إلى الحضيض، ويسقط عدالته بين الناس.

ونحن متى ذكرنا كلمة فن، فإنا نذكر بجانبها ما يجب على الأفراد والحكومات من تشجيعه، لأن الفن ليس ضربا من اللهو المكروه، وإنما هو لهو مفروض، تحتاجه الأرواح والأجسام، فيما تحتاجه من صنوف الغذاء، وليس محترف الغناء هو المردود الشهادة فقط فيما يرى الغزالي. بل المغرم بالسماع والمفرط فيه هو أيضا سفيه، ترد شهادته، لأن المواظبة على اللهو جناية!

والفن –كما تعلم– لا حياة له إلا بوجود الهواة، فلن يحسن الغناء إلا إذا وجد هواة الإنشاد والسماع، ومتى كان الإكثار من الإنشاد، والإفراط في السماع، جناية وكان من واجب كل فرد أن يحارب هذه الجناية ما استطاع، فقد أصبح ما نسميه فن

الغناء، عرضة للانقراض، ولا عبرة بما يقول الغزالي من إباحته إذا لم يوجد موجب التحريم، فحسب الفن ضياعا أن تقول: إنه مباح.

غناء المرأة والأمرد الجميل

ولا يجيز الغزالي أن يسمع الغناء من امرأة لا يحل النظر إليها، ونخشى الفتنة من سماعها، وفي معناها الصبي الأمرد الذي تخشى فتنته.

وقد توقع الغزالي أن يسأل سائل: هل ذلك حرام في كل حال، حسما للباب، أو لا يحرم إلا حيث تخاف الفتنة في حق من يخاف العنت؟ وأجاب بأن هذه المسألة يتجاذبها أصلان؛ أحدهما: أن الخلوة بالأجنبية، والنظر إلى وجهها حرام، سواء خيفت الفتنة أو لم تخف، لأنها مظنة الفتنة على الجملة. والثاني: أن النظر إلى الصبيان مباح ما لم تخف الفتنة، فلا يلحق الصبيان بالنساء في عموم الحسم، بل يتبع فيه الحال، وصوت المرأة دائر بين هذين الأصلين، فإن قسناه على النظر إليها وجب حسم الباب، وهو قياس قريب، ولكن بينهما فرق، إذ الشهوة تدعو إلى النظر في أول هيجانها، ولا تدعو إلى سماع الصوت، وليس تحريك النظر لشهوة المماسة كتحريك السماع، بل هو أشد، وصوت المرأة في غير الغناء ليس بعورة، ولكن للغناء مزيد أثر في تحريك الشهوة، فقياس هذا على النظر إلى الصبيان أولى لأنهم لم يؤمروا بالاحتجاب، كما لم تؤمر النساء بستر الأصوات، فينبغي أن يتبع مثار الفتن ويقصر التحريم عليه [1].

---

[1] انظر ص ٢٨٠ ج ٢ إحياء.

موضوع الغناء

ولا مانع فيما يرى الغزالي من أن يكون في الغناء تشبيب بوصف الخدود، والأصداغ، وحسن القد، والقامة، وسائر أوصاف النساء، بشرط أن لا يكون في امرأة معينة، فإنه لا يجوز وصف المرأة بين يدي الرجال، وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة إلا أن تكون زوجته أو جاريته، فإن نزله على أجنبية فهو من العصاة. ويحرم على من كان في غرة الشباب أن يستمع، إذا كانت الشهوة غالبة عليه، سواء غلب على قلبه حب شخص معين أو لم يغلب (؟).

ما يباح من الغناء

وإليك جملة ما يباح فيه الغناء كما يرى الغزالي:

١- غناء الحجيج، إذ يدورون في البلاد بالطبل والشاهين والغناء.

٢- ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو.

٣- الزجريات التي يستعملها الشجعان في وقت اللقاء. وهذا مباح في كل قتال مباح، ومندوب في كل قتال مندوب، ومحظور في قتال المسلمين وأهل الذمة.

٤- أصوات النياحة في البكاء على الخطايا والذنوب.

٥- السماع في أوقات السرور المباح، كالغناء في أيام العيد، وفي العرس، وفي وقت الوليمة والعقيقة، وعند ولادة المولود، وعند ختانه، وعند حفظه القرآن، وعند قدوم الغائب.

٦- سماع العشاق، تحريكا للشوق، وتهييجا للعشق، وتسلية للنفس. وهذا حلال إن كان المشتاق إليه ممن يباح وصاله، كمن يعشق زوجته، أو سريته، فيصغي إلى غنائها لتضاعف لذته، وكذلك إن غضبت منه جاريته، أو حيل بينه وبينها بسبب من الأسباب، فله أن يحرك بالسماع شوقه، وأن يستثير به رجاء لذة الوصال، فإن باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعد، إذ لا يجوز تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء.

٧- سماع من أحب الله وعشقه واشتاق إلى لقائه، فلا ينظر إلى شيء إلا رآه فيه. وقد أطال الغزالي في هذه النقطة، ثم قرر أن إطلاق العشق على حب غير الله مجاز لا حقيقة، لأن كل محبوب سواه يتصور له نظير، إما في الوجود وإما في الإمكان، أما جمال الله فلا ثاني له، لا في الإمكان، ولا في الوجود (؟).

آداب السماع

لا يعتد الغزالي بسماع من يطرب للغناء بمجرد الطبع، ولا حظ له في السماع إلا استلذاذ الألحان والنغمات، إذا كان هذا الذوق لا يتطلب لوجود غير الحياة، فلكل حيوان نوع تلذذ بالأصوات الطيبة. ويسخر الغزالي ممن ينزلون المسموع على حسب شهواتهم، ومقتضى أحوالهم، ويرى حالتهم هذه أخس من أن تفرد بالبيان.

ويعتد فقط بمن ينزل ما يسمعه على أحوال نفسه في معاملته لله، أو من عزب عن فهم ما سوى الله حتى عزب عن نفسه وأحوالها، ومعاملاتها، وكان كالمدهوش الغائص في عين الشهود، الذي يضاهي حاله حال النسوة اللاتي قطعن أيديهن في مشاهدة جمال يوسف عليه السلام (!؟).

وإذا سمع أحد هؤلاء «الموفقين» ذكر عتاب أو خطاب، أو قبول أو رد، أو وصل أو هجر، أو قرب أو بعد، أو تلهف على فائت، أو تعطش إلى منتظر، أو شوق إلى ورد، أو طمع أو يأس، أو وحشة أو أنس أو وفاء بالوعد، أو نقض للعهد، أو خوف من فراق، أو فرح بوصال، أو ذكر ملاحظة الحبيب، ومدافعة الرقيب، إلى غير ذلك مما تشتمل عليه الأشعار، فلا بد أن يوافق بعضها حالا في نفسه، فيوري زناد قلبه.

ولهؤلاء وضع الغزالي الآداب الآتية:

١- مراعاة الزمان، والمكان، والإخوان: فليس له أن يسمع وقت شغل القلب ولا في شارع مطروق، أو موضع كريه أو مع قوم من أهل الدنيا يحتاج إلى مراقبتهم، ومراعاتهم.

٢- أن يكون مصغيا إلى ما يقول القائل، حاضر القلب، قليل الالتفات إلى الجوانب، متحرزا عن النظر إلى وجوه المستمعين، وما يظهر عليهم من أحوال الوجد مشتغلا بنفسه ومراعاة قلبه.

٣- أن لا يقوم، ولا يرفع صوته بالبكاء، وهو يقدر على ضبط نفسه. ولكن إن رقص أو تباكى بغير قصد الرياء فهو مباح.

٤- موافقة القيام في القيام، إذا قام واحد منهم في وجد صادق من غير رياء وتكلف، أو قام باختياره من غير وجد، وقامت له الجماعة، فلا بد من الموافقة، رعاية لأدب الصحبة.

وهناك أدب خامس وضعه الغزالي خاصا بالشيخ المرشد، وهو ملاحظة المريدين، فينبغي أن لا يسمع في حضورهم، إذا كان فيهم من لم يدرك من الطريق إلا الأعمال الظاهرة، ولم يكن له ذوق السماع، أو رزق ذوق السماع، ولكن فيه بقية من الحظوظ والالتفات إلى الشهوات، والصفات البشرية، أو كسرت شهوته، وأمنت غائلته، وانفتحت بصيرته، واستولى على قلبه حب الله، ولكنه لم يحكم ظاهر العلم، ولم يعرف أسماء الله وصفاته، وما يجوز عليه وما يستحيل.

الرقص

وقد رأينا الغزالي يبيح الرقص، ولكن أي رقص؟ هو ما يجري في مجالس الغناء الذي قصد به الحث على العمل للآخرة، وما نحسبه يمنع أن يرقص الرجل في مجلس تغنيه فيه امرأته أو جاريته. وعلى كل حال فلنسجل هنا أن الرقص والغناء يجب فيما يرى الغزالي أن يكونا بعيدين كل البعد عن مثار الشهوات. وما نريد أن نفصل أثر هذا التحرج في حياة الأمم، وإنما ننبه فقط أن الغزالي يضع حول الشهوة أسوارا من حديد، ولا تخرج الأخلاق عنده إلا رجالا مملوئين بالحيطة، قد بغضت إليهم بسمات الحياة، وقلما ينجح هؤلاء في ميدان الحياة لأن التنسك باب الخمود.

النقش والتصوير

أراد الغزالي أن يذم (الطب، والحساب، واللغة، والشعر، والنحو، وفصل الخصومات، وطرق المجادلات) بسبب ما تورث من الكبر، فلم يزد على أن قال: «وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوما [1]».

---

[1] انظر ص ٣٥٢ ج ٣.

إذن الصناعات دون العلوم، وإنما كان الطب والحساب... إلخ من الصناعات، لأن العلم فيما يرى الغزالي هو ما يوصل إلى الآخرة، وما يخص الدنيا فهو صناعة وقد نص على أن من الصناعات ما هي مهمة، ومنها ما يستغنى عنها لرجوعها إلى طلب التنعم والتزين في الدنيا من أجل ذلك حض المسلم على أن يشتغل بصناعة مهمة، ليكون بقيامه بها كافيا عن المسلمين مهما في الدين. ثم قال:

«وليجتنب صناعة النقش والصياغة، وتشييد البنيان بالجص، وجميع ما تزخرف به الدنيا، فكل ذلك كرهه ذوو الدين [١]».

«وقد عد بيع أشكال الحيوانات المصورة في أيام العيد لأجل الأطفال منكرا تجب إزالته، والصور التي تكون على باب الحمام أو داخل الحمام تجب إزالتها على كل من يدخله إن قدر، فإن كان الموضع مرتفعا لا تصل إليه يده فلا يجوز له الدخول إلا لضرورة، وليعدل إلى حمام آخر، فإن مشاهدة المنكر غير جائزة. ويكفيه أن يشوه وجهها ويبطل به صورتها [٢]».

«ولا يمنع من صور الأشجار وسائر النقوش سوى صورة الحيوان ... وأما الصور التي على النمارق، والزرابي المفروشة، فليس منكرا. وكذا على الأطباق

---

[١] ص ٧٩ ج ٢.

[٢] وضع فضيلة الأستاذ الشيخ النجار بهامش نسخته ما يأتي: لعل الشيخ محمد صائم الدهر الذي شوه وجه أبي الهول وغيره من الصور وجعل أكبر همه ذلك قد سرى إليه هذا الفكر من إحياء الغزالي وقد رأيت في بعلبك صورا في الرواق المحمول على الأعمدة وهي مشوهة، وقيل لنا: إنها شوهت من أيام دخول العرب ذلك البلد. وشاهدت كذلك صورة البغل - وهو معبود أهل ذلك البلد قديما - مشوهة، وهو وجه إنسان بصورة أسد.

والقصاع، لا الأواني المتخذة على شكل الصور، فقد تكون رءوس بعض المجامر على شكل طير فذلك حرام يجب كسر مقدار الصورة منه (؟)».

على أن كلمة الغزالي لم تكن واحدة فيما يخص البناء والزخرفة، فقد رأيت كيف بين أن تشييد البنيان، وكل ما تزخرف به الدنيا كرهه ذوو الدين، ومع هذا قال بعد: «وفعل ذلك ممن له مال كثير ليس بحرام، لأن التزيين من الأغراض الصحيحة. ولم تزل المساجد تزين وتنقش أبوابها وسقوفها مع أن نقش الباب والسقف لا فائدة فيه إلا مجرد الزينة فكذا الدور».

وإذا كان التزين من الأغراض الصحيحة، فكيف تكون صناعته غير مهمة [1].

خلاصة هذا البحث

نرى مما سبق أن النقش مكروه وأنه لا يجوز تصوير الحيوان، ولا حرج في استعمال النمارق والزرابي المصورة، بصورة الحيوانات طبعا، لأنها موضوع الاستثناء. ويظهر أنها استثنيت لأن الصور فيها ستصير ممتهنة بالاستعمال، وعلى الأخص الأطباق والقصاع. وهو يتبع في هذا الرأي جمهور الفقهاء، إذ يرون التصوير داعيا إلى الوثنية. وقد نهوا عما يذكر بعبادة الأوثان.

ولا يفوتنا في ختام هذا الباب أن ننبه إجمالا على أن الغزالي لم يعن بتربية الأذواق وهذه الآراء التي قدمناها له في الفنون الجميلة تدل على إهماله، هذا الجانب من بناء الأخلاق.

---

[1] كأني بالرجل ينظر إلى الشيء نظرة علمية فيقضي بعدم الضرر فيه إذا كان على حد الاعتدال وينظر إليه نظرة صوفية فيكرهه وهذا منشأ الاضطراب الظاهري لأن الكلام في موضوعين.

عبد الوهاب النجار

obeikandl.com

ومما يلاحظ أنه يغشى النظرات الدقيقة في كتبه بأخبار وأقاصيص تحمل القارئ حملا على ازدراء الزهادة، والإخلاد إلى الخمول. وأكرر ما قلته غير مرة من أن في هذا الشطط شيئا من الحق، وهو الحرص البالغ على السلامة، والنفرة المطلقة من مواطن الشبهات. ولهذا القصد محاسن، وفيه كذلك كثير من العيوب.

obeikandl.com

الفصل الثالث

تربية الأطفال

يسميها الغزالي رياضة الصبيان، وكانت كلمة صبي في التعابير القديمة تقابل كلمة طفل في التعبير الحديث، وكذلك كلمة صبية تقابل كلمة طفلة أو فتاة، فكانوا يقولون: دخلت عليه صبية حسناء كما نقول: فتاة حسناء.

وقد سبقت كلمتنا في وراثة الأخلاق عن فطرة الأطفال، فلا نعود إليها الآن، وإنما نذكر المنهج الذي وضعه الغزالي لتربية الطفل، وهو تفصيل ما أجملناه في واجبات الآباء.

فيجب على الوالد فيما يرى:

١ - أن يؤدب ابنه، ويهذبه، ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء.

٢ - وأن لا يُحَبِّب إليه الزينة، وأسباب الرفاهية، لئلا يتعود التنعم: فيعسر تقويمه بعد ذلك.

٣ - وإذا رأى فيه مخائل التمييز، وبوادر الحياء، فليعلم أن عقله مشرق، وأن تنمية هذه الباكورة من عزم الأمور، وأحسن ما تنمى به أن تستعان في تأديبه وتهذيبه.

٤ - وليعلم أن أول ما يغلب على الطفل شره الطعام، فينبغي أن يؤدب في ذلك، وأن يعود أخذ الطعام بيمينه، والبدء باسم الله، والأخذ مما يليه، وعدم السبق في

الطعام، وعدم تحديق النظر إليه، وإلى من يأكل معه، والتمهل في الأكل وإجادة المضغ، وعدم الموالاة بين اللقم، والحذر من تلطيخ اليد والثوب، وتعود الخبز القفار في بعض الأحيان حتى لا يرى الأدم حتما [1].

٥- وينبغي أن يقبح عنده كثرة الأكل، بذم الطفل الشره ومدح المتأدب القليل الأكل، وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به، والقناعة بأي طعام كان.

٦- وأن يحبب إليه الأبيض من الثياب، دون الملون، وأن يفهمه أن تلوين الثياب ليس عادة الرجال، وإنما هو عادة النساء والمخنثين، وأن يحفظه من مخالطة الأطفال الذين عودوا التنعم ولبس الثياب الفاخرة، ومن مخالطة كل من يسمع منه ما يرغب في ذلك.

٧- وإذا ظهر من الطفل فعل محمود فينبغي أن يجازى عليه بما يفرح به، وأن يمدح أمام الناس، فإن أساء مرة فيجمل بالوالد أن يتغافل عنه، ولا يكاشفه، ولا سيما إذا تستر الطفل واجتهد في الإخفاء، فإن مكاشفته قد تزيده جسارة وعدم مبالاة. فإن عاد فليعاتب سرا وليحذر عواقب الافتضاح، وليكن العتب قليلا لئلا يهون على الطفل وقع الملام، وسمع التأنيب، وركوب القبيح.

٨- وينبغي أن يمنع من النوم نهارا، فإن ذلك يورث الكسل ولا يمنع منه ليلا، ولكن يمنع الفراش الوثير، لتصلب أعضاؤه ويعود خشونة الفراش.

٩- ويجب أن يمنع من كل ما يفعله خفية، فإنه لا يخفي إلا ما يعتقد أنه قبيح.

١٠- وليعود المشي في بعض النهار، لتحبب إليه الحركة والرياضة.

---

[1] الخبز القفار هو الذي لا أدم فيه.

١١- وليمنع من كشف أطرافه.

١٢- وينبغي أن يمنع من الافتخار على أقرانه بشيء مما يملكه والده، أو بشيء من مطاعمه وملابسه، أو لوحه ودواته، بل يعود التواضع، وطيب الحديث.

١٣- ويجب أن يعلم أن الرفعة في الإعطاء لا في الأخذ وأن الأخذ لؤم وخسة، ودناءة إن كان غنيا، وذلة ومهانة إن كان فقيرا، فلا يصح أن يأخذ شيئا من الأطفال.

١٤- وينبغي أن يعود أن لا يبصق في مجلسه، ولا يمتخط، ولا يتثاءب بحضرة غيره، ولا يستدبر سواه، ولا يضع رجلا على رجل، ولا يضع كفه تحت ذقنه، ولا يسند رأسه بساعده ويعلم كيفية الجلوس، ويمنع كثرة الكلام.

١٥- ويجب أن يمنع القسم، صادقا كان أو كاذبا، لئلا يعتاد ذلك.

١٦- وليعود أن لا يتكلم إلا مجيبا، وبقدر السؤال، وأن يحسن الاستماع إذا تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا، وأن يقوم لمن فوقه، ويفسح له المكان.

١٧- ويجب أن يمنع من لغو الكلام، ومن اللعن، والسب.

١٨- وليعود الصبر إذا ضربه المعلم، فلا يكثر الصراخ، ولا يستشفع بأحد، وليذكر له أن الصبر دأب الشجعان والرجال وإن كثرة الصراخ دأب المماليك والنساء.

١٩- وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من المكتب باللعب الجميل يستريح به: فإن منع الصبي من اللعب يميت قلبه، ويخمد ذكاءه، ويحمله على الاحتيال للخلاص من الكتاب.

٢٠- وينبغي أن يعلم طاعة والديه، ومعلمه، ومؤدبه، وكل من هو أكبر منه سنا من قريب وأجنبي.

٢١- وإذا بلغ سن التمييز، فينبغي أن لا يسامح في ترك الطهارة والصلاة، ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان، ويعلم كل ما يحتاج إليه من أمور الشرع.

٢٢- وليخوف من السرقة، وأكل الحرام، ومن الخيانة، والكذب، والفحش، وكل ما يغلب على الأطفال.

هذه خلاصة ما وضع الغزالي في التربية. وما أنكر أن فيها شيئا من التكرار ويرى أنه في مثل هذه المواطن جميل.

وإنما ألاحظ أنه لا معنى لأن تحبب إلى الطفل الثياب البيض بنوع خاص. ويظهر أن هذه كانت سنة حسنة إذ ذاك [١]. وألاحظ كذلك أنه لا يصح أن يعلم الصبي أن هناك فئة مخنثة تميل إلى الملون من الثياب، فقد يحسن أن لا تطرق آذان الصبي بمثل هذا الهجر، بل يجب أن لا يعرف أن الطفل قد يتخلق بأخلاق النساء. ولا أفهم معنى لأن يدعى الطفل إلى عدم إرخاء يديه، بل يضمهما إلى صدره حين يمشي! ويضحكني أن ينصح الطفل بالصبر والاحتمال حين يضربه المعلم، وكان أولى أن ينهى عن هذه العادة الشنعاء، التي لا تجمل بالمعلمين [٢].

---

[١] يرى الأستاذ عبده بك خير الدين أن لبس الثياب البيض فيه دعوة ضمنية إلى النظافة لأن الثوب الأبيض يعلن عن نفسه حين يحتاج إلى التطهير.

[٢] وضع فضيلة الأستاذ الشيخ النجار بهامش النسخة التي كانت بيده ما يأتي: إن أطفال أهل السودان فيهم هذه العادة على أتمها فإنهم يعودون عدم البكاء والصراخ مهما حل بالواحد منهم من الألم. ومن فعل ذلك عير. بل كثيرا ما تجد الطفل يأخذ جمرة النار فيضعها على

ـ ومن أدق ما تنبه له الغزالي تلميحه إلى أن يعلم الطفل أسرار البلوغ حين يصل إليه.

والغزالي يسمي المدرسة بالمكتب والكتاب، وليس له في هذا الباب غير برنامج ضئيل، يمثل ما كان يفهم في عصره من المدارس الأولية والابتدائية. ويتلخص هذا البرنامج (في تعلم القرآن، وأحاديث الأخبار، وحكايات الأبرار) ولم تخطر له الرياضة ببال. ولم يتعرض للغة الأدب، ولكنه نبه على أن الطفل يجب أن «يحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع، فإن ذلك يغرس في نفوس الصبيان بذور الفساد».

والغزالي يعد الطفل في الواقع لأن يكون جنديا في الحياة إذ يحرم عليه كل مظاهر اللين. وإن كان لم يغفل عن غايته الأخلاقية حين أوصى بأن يعلم أن الموت منتظره في كل ساعة، وأن العاقل من تزود من دنياه لأخراه. وأرى هذه الوصية خطرة، إذ تضعف العزم في نفوس الأحياء، ولا تترك للإسلام نفسه جيشا يحفظ به ثغر أو يفتح به قطر، وما كان الإسلام إلا دين الغزاة الفاتحين.

تربية البنات

لم يتكلم الغزالي عن تربية البنات، وكان عليه أن يهبهن نصيبا من عنايته. ولكن الرجل تأثر بعصره، وبقومه، فقد كانت تربية البنات مما لا يهتم به الأولون.

وسترى حين نتكلم عن حقوق المرأة أنه يحتم على الرجل أن يعلم زوجه، فإن لم يعرف ناب عنها في سؤال العلماء، ولكنك سترى كذلك أن هذا العلم الواجب على

ساعده ويذهب إلى أمه ليريها صبره على بقاء النار تأكل في جسمه دون إظهار تألم قائلا: أبشري يا أمي أنا أخو البنات.

الرجل لامرأته لا يزيد عن معرفة الفرائض من صلاة وصيام. ومعرفة الفرائض هذه لا تفيد المرأة شيئا في الحياة المنزلية، وهي العبء الملقى على عواتق النساء.

obeikandl.com

الفصل الرابع

آداب المعلمين

قد رأيت المنهج الذي وضعه الغزالي لتربية الطفل، ورأيت ما خطه لبرنامج التدريس في المكاتب الصغيرة، والآن نقفك على رأيه في تربية الطلاب، ونريد بهم من رأوا الاستزادة من العلم بعد انقضاء ذلك الأمد القصير، الذي أعد للأطفال.

والغزالي كان أستاذا في المدرسة النظامية، وكان يختلف إلى درسه ثلاثمائة من التلاميذ، وكان له بالطبع زملاء، وكان لهؤلاء الزملاء تلاميذ فمن البعيد أن لا تكون هذه الحركة ألهمته البحث في التعليم من حيث إنه مهنة، وهو قد ابتلي بمهنة التعليم!

ولقد تكلم الغزالي عن التعليم، وأطال في كتاب الإحياء، وتكلم عنه في الإملاء على ما أشكل من الإحياء، وذكر أنه (أفضل من سائر الحرف والصناعات) وبيَّن وجه هذه الأفضلية بالتفضيل.

وكل ما تقيد به هذه الحرفة فيما يرى أنه يجب أن يقصد بها وجه الله، ويقول في ذلك: (وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية الدائمة، أعني معلم علوم الآخرة، أو علوم الدنيا على قصد الآخرة، لا على قصد الدنيا. فأما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك نعوذ بالله منه [1].

وعلوم الدنيا هي في رأيه ما يشمل الطب والحساب والهندسة وتقويم البلدان، وعلى الجملة كل ما عدا العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. فالذي

---

[1] ص ٦٠ ج ١.

يعلم علوم الدنيا هذه هو بلا شك محترف. ويكفي أن يقصد بتعليمه الآخرة، ليكون من الناجين.

أضف إلى هذا أن الغزالي -لورعه- يشبه العلم بالمال، فكما أن لصاحب المال حال استفادة، وحال إدخار، وحال إنفاق على نفسه وحال بذل لغيره وهو أشرف أحواله، فكذلك لصاحب العلم حال طلب، وحال تحصيل، وحال استبصار، وحال تبصير، وهو أشرف الأحوال.

والتبصير هو التعليم. والغزالي لا ينكر أن يكون المرء معلما، فقد كان من المعلمين، وإنما يطالب المعلم بتعليم علوم الآخرة. أو علوم الدنيا على قصد الآخرة، وسترى فيما يذكر من آداب المعلم عدم أخذ الأجر، ولكن هذا لا يقدح في نظره إلى التعليم كمهنة، فإنه يكفينا أن يدرك أن التعليم صناعة، تحتمل الإجادة، كما تحتمل القصور، وأنه يجب على المعلم كيت وكيت، ليحسن أداء مهمته، على وجه نافع مقبول.

وقد وضع للمعلم الآداب الآتية:

١- أن يشفق على المتعلمين، ويجريهم مجرى بنيه. ويقول الغزالي في توابع هذه البنوة: وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد، التحاب والتواد.

٢- أن يقتدي بصاحب الشرع، صلوات الله عليه وسلامه، فلا يطلب أجرا على إفادة العلم، ولا يقصد به جزاء ولا شكورا.

٣- أن لا يدع من نصح المتعلم شيئا، وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها، والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من العلم الجلي.

٤- أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق، بطريق التلميح والرحمة لا بطريق التوبيخ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيج الحرص على الإصرار.

٥- أن لا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراء علمه: فليس لمعلم اللغة أن يقبح في نفس المتعلم علم الفقه مثلا، بل ينبغي أن يوسع عليه طريق التعليم في غيره. وإن كان متكفلا بعدة علوم فينبغي أن يراعي التدريج في ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة.

٦- أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه، ولا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله.

٧- أن يلقي للمتعلم القاصر الجلي اللائق به، ولا يذكر له أن وراء هذا الجلي تدقيقا يدخره عنه.

٨- أن يعمل بعلمه: فلا يكذب قوله فعله. وهذا الأدب الأخير غير خاص بالمعلمين، ولكنهم أحوج الناس إليه وأولاهم به، إذ كانوا مرشدين، ومن حسن السياسة على أن يعمل المرشد بما يقول.

٩- أن يجمل نفسه كي يعظم في نفوس طلبته فلا يستصغروه، ولم يذكر الغزالي هذا في آداب المعلم. ولكن ذكره استطرادا في باب النظافة حيث قال: «كان رسول الله مأمورا بالدعوة، وكان من وظائفه أن يسعى في تعظيم أمر نفسه في قلوبهم كيلا تزدريه نفوسهم. ويحسن صورته في أعينهم كيلا تستصغره عيونهم. وهذا القصد

واجب على كل عالم تصدى لدعوة الخلق إلى الله: وهو أن يرعى من ظاهره ما لا يوجب نفرة الناس عنه».

١٠ - أن ينظر في نية المتعلم: فإن رآها حسنة علمه، وإن رآها سيئة أعرض عنه. فلا يجوز فيما يرى الغزالي أن نعلم من نرى في أقواله، أو أفعاله أو مطعمه، أو ملبسه، أو مسكنه، ما يدل على فساد نيته، وسوء قصده. ولا يكفي فيما يرى الغزالي أن يقول المعلم: إنما أريد نشر العلم، وللمتعلم بعد ذلك الخيار، إن شاء أحسن وإن شاء أساء، بل يشبهه بمن يهب سيفا لقاطع الطريق، ثم يقول: إنما أريد السخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة، وأن أعينه على الجهاد، فإن استعمل السيف في الأذى فهو وحده المسئول.

وربما كان يحسن بالغزالي أن ينصح المعلم ببذل الجهد في غزو الغرائز السيئة التي يراها في تلميذه، فإما الضن عليه بالعلم فهو فيما أرى هروب من الواجب، وعمل سلبي لا يغني ولا يفيد.

الفصل الخامس

آداب المتعلمين

وعلى المتعلم ما يأتي من الواجبات:

١- أن يقدم طهارة النفس من رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف.

٢- أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن فإنه مهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق.

٣- أن يذعن لنصيحة المعلم إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق.

٤- أن يحترز في مبدأ أمره عن الإصغاء إلى اختلاف الناس فإن ذلك يحير ذهنه ويفتر رأيه، بل عليه أن يتقن أولا طريقة أستاذه ثم يصغي بعد ذلك إلى الشُّبَه والمذاهب.

٥- أن لا يدع فنا من الفنون المحمودة إلا وينظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وغايته، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه، وإلا اشتغل بالأهم واستوفاه، وتطرف من البقية.

٦- أن لا يخوض في فن من الفنون دفعة، بل يراعي الترتيب.

٧- أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الذي قبله فإن العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا وبعضها طريق إلى بعض. وهذه الطريقة فيما أرى إنما تصلح في الفنون التي كان يعرفها الغزالي إذ ذاك، فمن الواضح أن الفقه مثلا طريق للأصول، ولكن هل يصح

لدينا الآن أن المنطق طريق الحساب، أو أن النحو طريق الجغرافيا، ووصف الشعوب؟

٨- أن يعرف أن شرف العلم إنما يرجع إلى شرف الثمرة أو قوة الدليل فعلم الدين فيما يرى الغزالي أشرف من علم الطب، لأن ثمرة الأول السعادة الأخروية، وثمرة الثاني السعادة الدنيوية والآخرة خير من الأولى. وعلم الحساب أشرف من علم النجوم لقوة أدلته. وعلم الطب أشرف من علم الحساب لأن الثمرة أولى من قوة الدليل.

وربما كان يحسن أن يتنبه الغزالي إلى أن للحساب ثمرة لا تقل شأنا عن وثاقة دليله، ولكن عذره أنه عاش في عصر قد غاب عن إنسانه أنه خلق لتعمير الوجود.

obeikandl.com